

دلائل الإعجاز

وذلك أنَّ من شأنِ المادح أنْ يمنعَ السَّامعينَ منَ الشَّكِّ فيما يمدحُ به
ويباعدَهُم من الشُّبهة وكذلك المُفْتَخِر . ويَزِيدُك بياناً أنه إذا كان الفعلُ مما
لا يُشَكُّ فيه ولا يُنْكَر بحالٍ لم يكْدُ يجيءُ على هذا الوجه ولكن يُؤْتَى به غيرَ
مبنيٍّ على اسمٍ . فإذا أُخبرتَ بالخروج مثلاً عن رجلٍ من عاداته أن يخرجَ في كلِّ
غداةٍ قلتَ : قد خرجَ . ولم تحتجِ إلى أن تقولَ : هو قد خرجَ ذاك لأنه ليسَ بشيءٍ
يَشْكُ فيه السامع فتحتاجُ أن تحقِّقَه وإلى أن تقدمَ فيه ذكرَ المحدثِ عنه . وكذلك
إذا علمَ السامعُ من حالِ رجلٍ أنه على نيَّةِ الركوبِ والمضيِّ إلى موضعٍ ولم يكن
شكٌّ وتردُّد أنه يركبُ أو لا يركبُ كان خبرُك فيه أن تقولَ : قد ركبَ ولا تقولُ : هو
قد ركبَ . فإن جئتَ بمثلِ هذا في صلةِ كلامٍ ووضعتَه بعد واوِ الحالِ حَسُنَ حينئذٍ .
وذلك قولُك : جئتُه وهو قد ركبَ . وذاك أنَّ الحكمَ يتغيرُ إذا صارتِ الجملةُ في مثلِ
هذا الموضع ويصيرُ الأمرُ بمعرض الشَّكِّ . وذاك أنه إنما يقولُ هذا من طَنٍّ أنه
يصادفُه في منزله وأن يصلَ إليه من قِبَلٍ أنْ يركبَ . فإن قلتَ فإنك قد تقولُ :
جئتُه وقد ركبَ بهذا المعنى ومع هذا الشَّكِّ . فإنَّ الشَّكَّ لا يَقْوَى حينئذٍ قوَّتَه
في الوجهِ الأول . أفلا ترى أنك إذا استبطأتَ إنساناً فقلتَ : أتانا والشمسُ قد طلعت
كان ذلك أبلغَ في استبطائك له من أن تقولَ : أتانا وقد طلعتِ الشمسُ وعكسُ هذا أنك إذا
قلتَ : أتى والشمسُ لم تطلعْ كان أقوى في وصفك به بالعجلةِ والمجيءِ قبلَ الوقتِ الذي
طُنَّ أنه يجيءُ فيه من أن تقولَ : أتى ولم تطلعِ الشمسُ بَعْدُ . هذا وهو كلامٌ لا يكادُ
يجيءُ إلا نابياً وإنَّما الكلامُ البليغُ هو أنْ تبدأَ بالاسم وتَبني الفعلَ عليه
كقوله - الكامل - : .

(قد أغتدي والطَّيرُ لم تَكَلِّمَ ...) .

فإذا كانَ الفعلُ فيما بَعْدَ هذه الواوِ التي يرادُ بها الحالُ مضارعاً لم يَصْلُحْ
إلا مبنيّاً على اسم كقولك : رأيتُه وهو يكتبُ ودخلتُ عليه وهو يُمْلِي الحديثَ .
وكقوله - طويل - : .

(تَمَزَّزَتْهُهَا والدَّيْكُ يَدْعُو صَبَاحَهُ ... إذا ما بَدَّوْا نَعَشَ دَنَوُوا)

فَتَمَّوْا بَوَا)